موقف مبارك الميلي من التصوف.

د. كمال جحيش

جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة

ما ذكرت جمعية العلماء المسلمين ورئيسها العالم المصلح عبد الحميد ابن باديس إلا ذكر العالم مبارك بن محمد الميلي[1]، وتواردت معه تلك المواقف الشجاعة التي وقفها وهو ينافح من خلال الصحافة ضد المسيئين للجزائر ولدينها، ومن أكثر الجبهات التي شغلته وأخذت من وقته وجهده الشيء

[1] ولد الشيخ مبارك بن محمد الميلي سنة 1316هـ الموافق لـ 1898م في دوار أولاد مبارك – الميلية حاليا- وبعد أوقات عصيبة أمضاها في قريته التحق بمعهد الشيخ محمد الميلي في ميلة، ثم التحق بحلقة الشيخ ابن باديس في قسنطينة ، ثم انتقل إلى تونس للتحصيل ، عاد إلى الجزائر سنة 1922م حيث كان مساعدا لابن باديس ، أرسله هذا الأخير إلى الأغواط لنشر دعوة الإصلاح بها، وفيها تعرض لمحاولة اغتيال في نفس الوقت الذي تعرض فيه ابن باديس للاغتيال، وعندما تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين انتخب عضوا في المجلس الإداري، كان يشغل منصب أمين المال في الجمعية، توفي في 09 فيفري 1945.

الكثير، جبهة الشرك ومظاهره، حيث انتدب نفسه لمحاربة هذه الظاهرة لما لها من خطر ظاهر على إيمان الناس وعلى أخلاقهم، لكن المشكلة التي جابهته- زيادة على المحتل ومضايقاته- هي أن بعض المنتسبين إلى التصوف ممن كان لهم سلطان على نفوس قطاع واسع من الجزائريين، لم يرضوا طريقته في معالجة الظاهرة، وحسبوه إنما يقصدهم ويعرض بهم، وإن كان لهم من ذلك النصيب الأكبر، فانبروا للرد عليه والطعن في مراده، والتحذير منه، وشنعوا عليه في أوساط العامة وأشاعوا عنه أنه يعادي التصوف على الجملة، كل هذا من أجل صرف الناس عن الالتفات إلى الإصلاح الذي بدأ يشق طريقه، وما عرفوا أن مسلكهم مكشوف، وطريقهم مفضوح، وأن ريح الخيانة للدين والوطن منه تفوح، والخوف على النفوذ من الزوال بدأ يلوح،حيث استمر مبارك الميلي يؤدي رسالته بروح العالم المثابر، ولم تأخذه في الله لومة خائن أو مكابر.

وحتى أساهم ولو بجرة قلم في دفع لبس روج له الجاهلون، أو أذاعه الخائنون، وفي إنصاف عالم شغل ببناء الرجال عن تأليف الكتب شأن أستاذه ابن باديس، رأيت أن أحاول معالجة قضية رأيتها جديرة بالدراسة-حسب ما يقتضيه المقام-، وهي موقف مبارك الميلي من التصوف، ذلك أن موقفه الواضح من أصحاب الطرق قد يسحب على موقفه من التصوف ويُجعل هذا من ذاك.

وقبل البدء في تناول قضية التصوف عند مبارك الميلي رأيت أن أشير إلى بعض العلماء الجزائريين الذين كانت لهم مواقف نقدية مما صار إليه حال التصوف في العهود المتأخرة خاصة، من أجل أن نضع مبارك الميلي في سياق حركة النقد التي ظهرت في الجزائر، على اعتبار أن هناك من يرجع هذا النقد إلى تأثيرات خارجية وخصوصا الوهابية منها، كون هذه الحركة النقدية ظهرت في الجزائر قبل الحركة الوهابية.

1- **حركة نقد التصوف المنحرف في الجزائر خلال القرون الأخيرة** : ظهرت في الجزائر حركة نقد مستمرة للحال التي آل إليها التصوف، ولعل من النماذج التي كان لها شأن في النقد، عبد الرحمن الأخضري[1]، حيث ساءه أن ينتسب إلى التصوف أناس يدعون الولاية وأحرى بهم أن ينسبوا إلى الغواية، وأرجوزته المسماة بالقدسية فيها تصوير لحال المبتدعة الذين أدخلوا في الدين ما ليس منه وأفسدوا طريق التصوف وصيروه مدخلا للغواية وكان يمكن أن يكون مدخلا للهداية، ومما جاء في هذه الأرجوزة:

تجاوز القوم حدود الدين واشتغلوا بطاعة اللـــعين
وأولعوا بالافك والتلبيس وأعجبوا بشيخهم إبلـــيس
يا صاح لا تعبأ بهـــؤلاء ذوي الحنا والزور والأهواء
قد نبذوا شريعة الرسول فالقوم قد حادوا عن السبيل
لقد رأينا فرقة إن ذكروا تبدعوا وربما قد كفـــروا

ومن الذين نبهوا إلى انحرافات المنتسبين إلى الصوفية المدعين للعلم والولاية، العالم الشهير عبد الكريم الفكون(988هـ،1580م/1073هـ،1662م)، حيث يقول بشأن أحد هؤلاء المبتدعة:" وجعل تلامذة سماهم الفقراء ، على طريق أهل البدع، واتخذوا الحضرة، وهي لعبة يتخذونها يراؤون بها الناس ولا يستخفون من الله، بها يأكلون ومنها يتمولون وعليها في قضاء أوطارهم يعولون ، يجتمعون لذكر المولى جل جلاله فيغيرون اسمه ويشطحون ويرقصون وربما يكفرون..... فتراهم ككلاب نابحة ولعابهم كمياه طافحة، وأنفاسهم كنيران

---

[1] عبد الرحمن الأخضري (918-983هـ/1512-1575م)، من أهل بسكرة مدفون بقرية بنطيوس قرب بسكرة، له عدة كتب منها: "الجوهر المكنون" في البيان ،" السراج" منظومة في علم الفلك، السلم وشرحه في المنطق. خير الدين الزركلي، الأعلام، [د ت] ج4 ص108

نافحه، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ومكروه ...."[1]. ومنه يبدو أن هذه الظاهرة استمرت، بل وازداد شرها بازدياد وطأتها على عامة الشعب، وازدياد إيغالها في المفاسد والبدع بازدياد الجهل، وهو ما هال مبارك الميلي كما هال إخوانه في جمعية العلماء.

أولا: نظرة مبارك الميلي إلى التصوف وبعض مقالات المتصوفة :

1- مبدأ التصوف: يرى مبارك الميلي أن مبدأ التصوف دب في الأوساط الإسلامية على قدمي الإفراط في العبادة والتفريط في الدنيا، واشتمل كسائر المبادئ على الصديق والزنديق ، ولكن كان الغالب على رجاله العلم بالدين والصدق في العمل وموالاة السلف، فكانوا في الاعتقادات محدثين سلفيين أو متكلمين أشعريين وماتريديين، وفي العبادات مالكيين أو حنفيين أو شافعيين أو حنبليين ، واشتهر منهم أبو القاسم الجنيد(ت:298هـ) . فانتسب إليه من بعده في آداب السلوك ، وبهذا كان التصوف مرضيا عند أهل السنة لانتساب رجاله إلى الأئمة المرضيين[2]. من هنا يشير الميلي إلى أن التصوف في بداية عهده كان مقبولا عند سائر المسلمين لاتصاف المنتسبين إليه بالإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، والاشتغال بتهذيب النفس ولجمها عن ورود ما يشينها، لكن الأمر لم يدم على هذه الحال ، حيث بدأ بعض المبتدعين يندسون في صفوف الصوفية وخاصة منهم الرافضة، يقول مبارك الميلي: " رضي الناس عن التصوف بذلك الانتساب ، وأعجبوا بتقى رجاله أيما إعجاب، ثم غمرت الثقة بالألقاب نقد ما في سير الصوفية من خطأ وصواب، فسال لعاب المبتدعين

---

[1] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، ت: أبو القاسم سعد الله ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1408هـ/1987م ص119

[2] مبارك الميلي ، رسالة الشرك ومظاهره ، ص284

المنبوذين من هذه الثقة التي نعم بها المتصوفون ، فاندسوا تحت هذا العنوان ولا سينا الرافضة التي كانت لها مطامع سياسية ، وكان التصوف والرفض كلاهما في العجم أشهر وأكثر انتشارا ، فسهل لذلك الامتزاج بينهما ، فتكون تصوف باطني استقل بقيادة العامة أو كاد واتقى بعموم الثقة في عنوان التصوف ألسنة النقاد" [1].

2- **اتصال التصوف بالتشيع**: إن المتدبر في حال التصوف والتشيع يجد بينهما تشابها كبيرا، فإذا كان مبدأ التشيع هو حب آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام و موالاتهم، ومبدأ التصوف هو الزهد في الدنيا والإقبال على الله بالكلية، فإن ما صار إليه حال الصوفية من تقديس لمشايخهم والقول بعصمتهم،ورفع نسب كثير من أوليائهم إلى آل البيت، وما صار إليه التشيع فيما بعد من رفع للأئمة فوق مستوى البشر، يجعل الصلة بين هؤلاء وهؤلاء قوية، وخاصة عندما تلتقي سلسلة طبقات الصوفية مع سلسلة الأئمة عند الشيعة ، حيث كلاهما يجعل مبدأ طريقته وإمامه هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ، وقد نبه على هذا ابن خلدون في مقدمته حيث قال:" ثم إن هؤلاء المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا...وتبعهم ابن العربي وابن سبعين ....وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وبإلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم"[2] ، وقد أخذت هذه القضية عند مبارك الميلي حيزا كبيرا

---

[1] مبارك الميلي ، رسالة الشرك ومظاهره ، ص284

[2] ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي: بيروت:1425هـ/2005م، ص436،437.

وأولاها أهمية كبيرة وبين أن هذه الصلة رصدها من خلال جملة من العقائد والمقالات المعروفة عند الصوفية ، منها:

أ - **القول بالحلول والاتحاد**: وهما مقولتان من مقالات الصوفية، وبينهما فرق من جهة أن الإتحاد هو أن يصل المتصوف "إلى درجة يتحد فيها بخالقه، وتتلاشى شخصيته في الذات الإلهية، فيصعد إلى عالم النور، وتنكشف أمامه المغيبات، ويخيل إلى جلسائه أنه حاضر وهو غائب"[1]، وهذه المقولة تنسب إلى الجنيد من الصوفية، وأنه أول من قالها، وأما الحلول فمن مدلولاته عند الصوفية القول بحلول اللاهوت في الناسوت، على وجه يصير معه الولي هو الدليل الحي على الله، أو يصبح هو هو[2] ، أي أن الله يحل في الأولياء المصطفين، وهذه المقالة تنسب إلى الحسين بن منصور الحلاج،وهاتان المقالتان وإن كانتا اشتهرتا في الأوساط الصوفية، وخاصة القول بالحلول، إلا أنهما وجدتا لهما أنصارا في الأوساط الباطنية، إلى الحد الذي جعل مبارك الميلي يرى في اشتراك الصوفية المتأخرين مع الباطنية في هاتين المقالتين دليلا على الصلة القوية بينهما، وأن الملحدة تدثروا بدثار الصوفية كما تدثروا بدثار التشيع ليكيدوا له، يقول مبارك الميلي في هذا الشأن" وكان من مظاهر اتحاد الرافضة الباطنية بالصوفية ظهور مذهب الحلول والقول بالإتحاد، فقد كان ذلك معروفا أولا في الباطنية ثم ظهر على متأخري الصوفية، كابن عربي الحاتمي[3] وابن سبعين[1] وابن

---

[1] إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة، ج2 ص69

[2] إبراهيم مدكور، المرجع نفسه، ص 69

[3] محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي المعروف بالشيخ الأكبر(ت:638هـ/1240م).

العفيف التلمساني[2] وابن الفارض[3] وغيرهم.

والباطنية[4] الذين يتحدث عنهم مبارك الميلي هم الشيعة الإمامية الإسماعيلية[5] ومن سلك مسلكهم، وهم الذين سماهم أبو حامد الغزالي " أهل

---

[1] هو عبد الحق بن سبعين (614هـ- 669هـ) واحد من كبار فلاسفة الصوفية، كان في فلسفته خصما للمشائية، من مؤلفاته: بد العارف، و مجموعة رسائل حققها الدكتور عبد الرحمن بدوي.

[2] هو سليمان بن علي بن عبد الله المعروف بابن العفيف التلمساني(610-690هـ/1213-1291م)، متصوف على طريقة محي الدين بن عربي، اتهم بالميل إلى النصيرية(طائفة شيعية إسماعيلية) من كتبه: شرح المواقف للنفري، شرح الفصوص. الزركلي، الأعلام ج3 ص 193.

[3] هو عمر بن الفارض(576هـ-632هـ) ويعرف بسلطان العاشقين، واحد من كبار شعراء الصوفية اشتهر بقصيدته: التائية الكبرى

[4] الباطنية هم من يقولون إن للقرآن ظاهرا وباطنا، ويتوسلون إلى معرفة الباطن بضروب من التأويل من غير مراعاة أصول التفسير، وخاصة قواعد اللغة، يقول أحد دعاتهم، " أما الحلال فإنه الواجب إظهاره وإعلانه، والحرام الواجب ستره وكتمانه... وأما الصلاة فصي صلة الداعي إلى دار السلام...والزكاة إيصال الحكمة إلى المستحق، ...والصوم الإمساك عن كشف حقائق النواميس الشرعية من غير أهلها ... والحج هو القصد إلى صحبة السادة الأئمة من أهل البيت والإحرام الخروج من مذهب الأضداد ...وأما الزنا فهو إيصال المستجيب من غير شاهد والربا الرغبة في الإكثار وطلب الحطام بإفشاء الأسرار والمسكر الحرام ما يصرف العقل عن النوم إلى طلب معرفة الإمام ومشاهدة أنواره المحيطة بالخاص والعام ". أربع رسائل إسماعيلية ،عارف تامر. نقلا عن: محمد أحمد الجوير، الإسماعيلية المعاصرة. ط1، 1414هـ/1994م ص 107 ، 108.

[5] فرقة إمامية شيعية قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر، وهم من أسسوا الدولة الفاطمية في الجزائر قبل أن تنتقل إلى مصر، اختلطت عقائدهم بالفلسفة الفيضية ، من أشهر فرقهم حاليا: النصيرية، البهرة والدروز، من فلاسفتهم القدامى : أبو يعقوب السجستاني (حوالي 360هـ)،

التعليم" في كتابه " القسطاس المستقيم"، وسماهم الباطنية في كتابه " فضائح الباطنية"، والقول بحلول الله تعالى في الأئمة مشهور عند الشيعة الإسماعيلية منذ نشأتهم، ولعل ما يقرب الصورة أكثر أن أغا خان الثالث(محمد شاه الحسيني) حين عرف زوجته الفرنسية على نفسه قال: " أنت لا تجهلين بأني أمير شرقي كبير، وأعتقد بأنك تجهلين بأن آلافا من البشر يعتقدون بأن الإله متجسم فيَّ وأنني من سلالة علي بن أبي طالب الذي كان يعلم الوحي، وأنه بعد قتله لم يتوقف هذا الوحي الذي جاء به، بل سار في الخفاء حتى وصل إلي"[1]، إن هذا الذي يقول به هذا الإسماعيلي يلتقي مع ما يقوله الصوفية القائلون بالحلول.

والذي ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام، أن حديث مبارك الميلي عن الحلول عند الصوفية ليس منقطع الصلة بالواقع الذي عاشه وعاشته جمعية العلماء، حيث نجم في أوائل القرن العشرين رجل أسس طريقة سميت باسمه وهو ابن عليوة[2]، حيث كان يروج لمقالة الحلول ووحدة الوجود[3]، وديوانه يطفح بذلك، ومنه قوله:

وليس وجود الحق قبل وجوده وبعد وجوده وحيثما تولى

كان الله وحده ولا شيء معه وهو كما كان آخرا وأولا

حميد الدين الكرماني(ت:411هـ)، والرحالة ناصر خسرو(ت:481هـ)، أما علماؤهم المعاصرون فمنهم : مصطفى غالب وعارف تامر.

[1] محمد أحمد الجوير، الإسماعيلية المعاصرة. ط1: 1414هـ/1994م ص92 ،93

[2] هو أحمد بن مصطفى بن عليوة ولد سنة 1291هـ/ 1869م وتوفي سنة1353هـ/1934م أنشأ الطرقة العليوية التي جدد بها الطريقة الدرقاوية الشاذلية.

[3] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة ،ط1، دار البعث: قسنطينة1405هـ/1984م ج1 ص 175.

فهو واحد الذات لاشيء دونه ظاهر باطن أزلي ولا زالا

فأينما رأيت رأيت وجوده ففي مطلق التوحيد ليس فيه إلا[1]

ومعلوم أن مبارك الميلي ومعه جمعية العلماء المسلمين قد دخلت في جدال شديد مع هذه الطريقة بشأن المعتقدات التي كانت تروجها، وقد كان ذلك سببا في محاولة الاغتيال التي تعرض لها ابن باديس سنة 1926م .

ب- الاعتقاد في القطب وحكومته: يرى مبارك الميلي أنه كما ظهرت الصلة بين التصوف والتشيع في القول بالحلول ، ظهرت أيضا في السلم التراتبي للصوفية، إذ يشبه سلم ترتيب الأئمة عند الشيعة وخاصة الإسماعيلية منهم إلى حد المطابقة، و الاعتقاد في القطب يماثل اعتقاد الشيعة في الإمام وعصمته، ف"هؤلاء المتأخرون من الصوفية قالوا بالقطب، ومعناه رأس العارفين، ويزعمون أنه لا يساويه أحد في مقامه حتى يموت فيخلفه آخر، وذلك هو معنى الإمام المعصوم عند الرافضة، واخترعوا للقطب حكومة سرية وديوانا خياليا. وذلك على نحو ما تحلم به الرافضة في إنشاء حكومة على مذهبها"[2]. وهذا الكلام لعل الميلي أخذه عن ابن خلدون الذي يذكر أن من أشار إلى ذلك هو ابن سينا[3] في الإشارات فقال:جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد[4]. وهذا الواحد هو القطب، ويعرف أيضا بالإنسان الكامل، وإذا كان معلوما أن الشيعة يجعلون الإمامة ركنا من أركان الدين، بحيث لا تصح العبادات من غير الإيمان بالإمام، ومن صفات هذا الإمام أن يكون

---

[1] ديوان بن عليوة، نقلا عن صراع بين السنة والبدعة ص207.

[2] مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص 285.

[3] أبو علي بن سينا المعروف بالشيخ الرئيس، وهو أشهر من أن يعرف به، وال1ي يعنينا هنا هو التذكير بأنه كان شيعيا

[4] المقدمة ص437

معصوما، فإن الصوفية يقتربون من هذا المعنى، حين يقولون بالقطب ويضفون عليه من الصفات ما يجعله فوق مستوى البشر، على أن أصحاب كتب التصوف أخفوا القول بالعصمة بمصطلح آخر وهو الحفظ، ومن ذلك قول الكلاباذي" ولطائف الله في عصمة أنبيائه **وحفظ أوليائه** من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعد"[1] ، وقد صار القول بعصمة الأولياء والمشايخ متمكنا في الأوساط الصوفية، وكان مثلهم في ذلك هم الأئمة وليس الأنبياء، على اعتبار أن بعض الشيعة وإن كانوا يقولون بعصمة الأنبياء و الأئمة على السواء، فإنهم يجعلون لبعض أئمتهم مكانة تفوق مكانة الأنبياء والملائكة[2]، ولعل من وجوه هذا التفضيل أن الأنبياء وردت بشأنهم آيات قرآنية تفيد بأنهم وقعوا في أخطاء وأن الله تاب عليهم، فحفظ الأنبياء كان **بالوحي**، وحفظ الأئمة كان **بالعصمة**، ولعل من أقوى الأدلة على انتقال القول بالعصمة من التشيع إلى التصوف ما ذكره ابن عربي حين قال:" فإن من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوما، وليس الظاهر إن كان غيره يكون له مقام العصمة"[3] ، وقد أصبح التصريح بالعصمة شائعا عند الصوفية، فهذا أبو الحسن الشاذلي يرى في غير لبس ولا إبهام، أن من خواص القطب إمداد الله بالرحمة والعصمة والخلافة والنيابة[4].

---

[1] الكلاباذي، التعرف إلى مذهب أهل التصوف، ص99، نقلا عن: مصطفى كامل الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ط2، القاهرة: دار المعارف، ج1 ص385

[2] من هذا القبيل ما قاله الخميني" **إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل**." الحكومة الإسلامية ط2 ، بيروت، دار الطليعة 1979م ص52

[3] محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية ، ج3 ص 183، نقلا عن : كامل الشيبي، المرجع السابق، ص 387

[4] كامل الشيبي، المرجع السابق، ص 388.

والظاهر أن حديث مبارك الميلي عن القطب وعصمته يشير إلى أن هذا الاعتقاد كان شائعا -ولعله ما زال كذلك- خاصة وأن شيخ الطريقة العليوية التي احتدم الجدال معها يسطر في ديوانه شعرا يفيد أن شيخه أوصاه بالارتقاء إلى الإلهية، ومنها قوله:

نوصيك بما أوصاني أستاذي قبل المنيا
البوزيدي كان غني على جميع البريا
أترك كلك في مكاني وارتق للألوهيا
وانسلخ عن الأكوان لا تترك منها بقيا
هذا وذاك سيان انظر نظرة مستويا
المكون والأكوان مظاهر الوحدانيا
إن حققت بالعيان لا تجد شيئا فريا[1].

والظاهر من هذه الأبيات -على ما فيها- أن بن عليوة سلك طريق الإلهية أخذا بوصية شيخه، ومعلوم أن من يرتقي إلى الإلهية فهو في مقام يصبح الحديث عن العصمة بالنسبة إليه غير ذي معنى، فهو أكبر من أن نقول في حقه معصوما أو غير معصوم.

ج- الاعتقاد في الأبدال[2]: الاعتقاد في الأبدال فرع عن الاعتقاد في الأقطاب، وتأثر الصوفية بالشيعة بيّن، يقول مبارك الميلي- ولعله نقل هذا عن ابن خلدون- " وقال متأخرو الصوفية بالأبدال ورتبوهم ترتيب الشيعة للنقباء"[3]،

---

[1] نقلا عن : صراع بين السنة والبدعة ج1 ، ص209.

[2] سلم ترتيب الصوفية صعودا كالآتي: الأبدال، الأوتاد، النقباء،ثم القطب أو الإنسان الكامل أو الإنسان الفاضل

[3] رسالة الشرك، ص285 ، وانظر: المقدمة ص 437.

ويسوق مبارك الميلي حديث الأبدال الوارد في بعض كتب السنة[1]، ويشرحه شرحا مغايرا لما درج عليه الصوفية في شرحهم لهذا الحديث، إذ يرى أن هؤلاء "الأبدال هم الطائفة الظاهرون على الحق والمجددون للدين على رأس كل مائة سنة، وليسوا أبدال الصوفية الذين يعتقد فيهم علم الغيب والتصرف في الكون والدلال على الله من غير أن يعرفوا بعلم وإتقان عمل، بل من كمال الصوفية المتأخرين الرغبة عن العلم"[2] ، ومبارك الميلي هنا يظهر أنه يعرِّض بصوفية عهده – وخاصة بن عليوة- الذي لم يعرف عنه طلبه للعلم.

ومن وجوه تأثر الصوفية بالشيعة في قولهم بالأبدال ، أن حديث الأبدال نفسه مروي عن علي بن أبي طالب، وهاهو ابن عربي يقول في الأبدال:" وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل منهم إقليم فيه ولايته، وهم عارفون بما أودع الله سبحانه وتعالى في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزولها في المنازل المقدرة"[3]. وصلة هذا الكلام بكلام الإسماعيلية في أئمتهم واضحة.

د- **لباس الخرقة**: قد يكون الصوفية احتاجوا في وقت من الأوقات إلى لبس الصوف لإظهار زهدهم وتقشفهم، لكنهم عادوا يتلمسون ما كان من حال النبي عليه الصلاة والسلام في ملبسه، ولما بلغهم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرقع ثوبه جعلوا ترقيع الثوب ولبس المرقعة طريقا إلى إظهار التقشف، وتكلفوا لبس المرقعة لأجل ذلك، حتى بلغ الأمر بأويس القرني أن كان يلتقط الرقاع من

---

[1] ونص الحديث الذي يورده الميلي هو: عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:" البدلاء بالشام، وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله رجلا مكانه، يستسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء وصرف عن أهل الشام بهم العذاب".

[2] رسالة الشرك ص 286

[3] الفتوحات المكية، ج2 ص9 نقلا عن كامل الشيبي ج 1 ص461،460.

المزابل فيغسلها في الفرات ثم يخيطها فيلبسها[1] ، ثم إن الأمر تطور مع مرور الزمن، وأصبحت المرقعة أو الخرقة تلبس وتورث، ويحاط إلباسها المريد بطقوس تعارفوا عليها فيما بينهم، ووجه الصلة بين التصوف والتشيع في لبس الخرقة أن معروفا الكرخي أخذ الطريقة ولبس المرقعة على يد علي بن موسى الرضا[2] [3] ثامن أئمة الشيعة الإثنا عشرية، وإذا ما تتبعنا سلسلة الخرقة وجدناها تصعد حتى تصل إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فشيخ الطائفة أبو القاسم الجنيد أخذها عن خاله السري السقطي(ت:253هـ)، عن معروف الكرخي(ت: 200هـ) عن علي بن موسى الرضا، ثم باقي الأئمة إلى علي بن أبي طالب الذي أخذها عن سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام[4].

3- ثمرة اتحاد الصوفية بالرافضة: يرى مبارك الميلي أن اتحاد الصوفية بالرافضة هدفه تمكين الرافضة من تنفيذ ما عجزوا عنه من تشويه حقائق الإسلام وقلب تعاليمه[5] ، ذلك لأن الرافضة لسوء سمعتهم بين العوام لبسوا خرقة الصوفية لما رأوا السلامة الظاهرة على التصوف تلبيسا على الناس حتى لا ينتبهوا إلى كيدهم.

وليس يخفى أن من شعائر الباطنية أن العلم لا يتلقى إلا من الإمام المعصوم، فكذلك أصبح حال متأخرة الصوفية ، إذ يعتقدون أن العلم لا يتلقى

---

[1] عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الجيل ص252.

[2] الشيبي ج1 ص428.

[3] علي الرضا (153- 203هـ) بن موسى الكاظم(128هـ-183هـ) بن جعفر الصادق(80هـ 148هـ) بن محمد الباقر(57-114هـ) بن علي زين العابدين(38-95هـ) بن الحسين(8-61هـ) بن علي بن أبي طالب(ق :40هـ).

[4] المرجع نفسه ص429.

[5] رسالة الشرك ص 288.

إلا من القطب المعصوم أيضا[1]، فحازوا بذلك شرف العلم وهم أبعد الناس عنه، وصار العلماء على الحقيقة محل ريبة إلا من كان له نصيب من تزكية القطب له، ولا يحظى بهذه التزكية إلا من غض الطرف عن البدع والمنكرات التي يروج لها هذا القطب[2].

ثانيا: أسباب هجوم الميلي على الصوفية: يبدو من خلال ما سبق أن الطابع العام الذي يسود استعراض الميلي لتاريخ التصوف وبعض مبادئه هو الرفض المقترن بربطه بالتشيع والرفض، وهو ما يجعل التساؤل عن أسباب حملة الميلي على المتصوفة تكتسي أهمية كبيرة ، ومن خلال دراسة السياق العام الذي بحث فيه الميلي هذه القضية يمكن يتبن سببين أساسيين:

1- **الجهل الذي عليه متأخرة الصوفية**: لا شك أن جملة النقد والاعتراض الذي أبداه الميلي تجاه متأخري الصوفية يصدق على أغلب من سلك طريقهم، وهو نقد سبق وأن وجهه غيره من قبل، لكن الملفت هو أن الميلي ركز على واحدة من أهم النقاط، ألا وهي تفشي الجهل في صفوف المنتسبين إلى الطرق الصوفية، من رئيس الطريقة إلى أبسط المريدين، وقد كان الجهل سببا قويا في استخفافهم بالأحكام الشرعية، بدعوى امتلاكهم للحقيقة وبلوغهم مرتبة سقطت معها عنهم الأحكام الشرعية، إذ لم يعودوا مخاطبين بها، وهو أمر لم يكن معروفا عند الصوفية الكبار، الذين كانوا في أغلبهم من العلماء، ومن ذلك ما دونه مبارك الميلي بشأن الطيب الحملاوي، حيث إنه أمر صاحبة نزل بقسنطينة أن تهيئ له غذاء في رمضان، فاستفهمته المرأة وهي مسيحية عن ذلك متعجبة

---

[1] وهم بذلك اجتمعا على القول بالعلم الباطن أو علم الأسرار الذي ينتقل من إمام إلى إمام، ومن قطب إلى قطب.

[2] رسالة الشرك ص 288

فأجابها قائلا: نحن نفرنو الدين على الناس، وكلمة نفرنو يراد منها العطاء والتوزيع، والمقصود أن الدين ملك لهم يكلفون به الناس ولا يتكلفون به، و من المعلوم عند الحنصالية[1] وهي شعبة من الشاذلية أن شيخهم سوغ لهم الملاهي وتمتيع النفس بما تشتهي[2] ، وما ذاك إلا بسبب جهلهم وإشاعة هذا الجهل بين الناس، حتى أصبح الناس يعتقدون في بركة كلاب بن الحملاوي، ويسوق لنا الميلي قصة كلاب عبد الرحمن بن الحملاوي التي هامت في عدة جهات فكان الناس يكرمونها بالذبائح والضيافات ولكنهم يؤلمونها بانتزاع شعورها تبركا وزلفى.

وبسبب الجهل الذي أشاعوه بين الناس أصبح هؤلاء منقادين لهم بحيث صار من السهل عليهم أن يسلبوهم أموالهم[3]، وقد كان جمع المال والزرع وما إلى ذلك لديوان الصالحين أمرا مألوفا لتقادم العهد على العمل به.

ولا يفوتنا التذكير بالطريقة العليوية التي أثارت مبارك الميلي لفتح باب الجدال مع الطرقيين عموما، حيث إن مبارك الميلي ومعه باقي العلماء كتبوا في جرائد الجمعية ما فضحوا به جهل رئيس هذه الطريقة، حتى صار أتباعه يعتذرون له بأنه لم يشغل نفسه بطلب علوم الظاهر، ولذلك جاء شعره مهلهلا غير متقيد بالعروض بله اشتماله على طامات نبه عليها عبد الحميد بن باديس وإخوانه.

---

[1] الطريقة الحنصالية فرع من الشاذلية، ومؤسسها هو سعيد بن يوسف الحنصالي(ت:1702م)وأصله من حنصالة جنوب فاس، حملها إلى الجزائر تلميذه سعدون الفرجيوي. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ص 86

[2] رسالة الشرك ص 297

[3] يمكن تتبع نماذج من استغفال شيوخ الطرق للناس في رسالة الشرك من ص 295 والصفحات التي تليها.

2- العمالة للاحتلال التي بدت من بعض الطرق: لعل ما أثار مبارك الميلي وحفزه على الكتابة في فضح الطرقيين، تلك العمالة الظاهرة للاحتلال التي أبدتها بعض هذه الطرق[1]، وخاصة: العليوية، والتيجانية، والحنصالية والعيساوية[2]، فقد كان بعض أتباع هذه الطرق عيونا للمحتل على الشعب الجزائري، و كان لهم دور أساس في عرقلة جهود جمعية العلماء، حتى إنه عندما فشلوا في خططهم قال أحدهم بعد يأس كما نقل الميلي" نحن فلسناهم عند الحكومة وهم فلسونا عند الأمة"[3].

خاتمة: مما سبق يمكن القول إن موقف مبارك الميلي من التصوف موقف نقدي شأنه شأن المواقف النقدية التي سبقته التي لا تصدر إلا من عالم أصيل و مستوعب ، وليس يعني هذا أن ليس فيه عناصر جديدة، بل إن هذه العناصر الجديدة التي انطوى عليها موقفه يمكن تلمسها في ذلك الربط الفريد بين فساد مسالك الصوفية المتأخرين من الناحيتين العقدية والعملية، وانعكاس ذلك الفساد على علاقتهم بالمحتل، حيث إن بعضهم أصبحوا مغرقين في الولاء للمحتل على حساب مصالح بلدهم وأمتهم، ومن العناصر التي يمكن تلمسها أيضا، ربطه بين فساد التصوف في العهود المتأخرة، وحطهم من شأن العلم بصورة لم تكن معهودة عند المتصوفة الأوائل، بدعوى أن علم الظاهر علم نفعه

---

[1] من الطرق الصوفية التي كان لها باع في رفع راية الجهاد في الجزائر الطريقة الرحمانية ، كما كان لها دور كبير في تحريج كثير من العلماء .

[2] العيساوية فرع من الجزولية الشاذلية ، أسسها محمد بن عيس الإدريسي(ت: 1526) في مكناس وهي من الطرق التي تمارس طقوسا لا علاقة لها بالعبادة والتصوف، مثل الرقص وما شابه ذلك، بحيث يمكن عد تلك الطقوس من قبيل الفلكلور الشعبي الذي لا صلة له بالدين أصلا.

[3] رسالة الشرك ص288.

قليل، وهو لا يصلح إلا لعوام الناس الذين لم تزكُ نفوسهم، وتوظيف هذا المذهب أضر الأمة بشكل مريع، حين شجع على التحلل من أحكام الشريعة من جهة، وعرقل السير في طريق الإصلاح من جهة أخرى.

إن موقف مبارك الميلي من التصوف السُنِّي السَنِي لا يمكن إلا أن يكون موقف القبول شأنه شأن العلماء الكبار الذين يرون في التصوف تزكية للنفس وطريقا لتهذيبها، وتدريبا على الزهد والمجاهدة، وكل ذلك لابد أن يكون معروضا على الكتاب والسنة، وهو بعيد كل البعد عن الزهد بقصد اصطياد الضعفاء وأكل أموالهم تحت مسمى ديوان الصالحين.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة

2- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي: بيروت:1425هـ/2005م

3- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة ،ط1، دار البعث: قسنطينة1405هـ/

4- خير الدين الزر كلي، الأعلام ج3 .

5- الحميني الحكومة الإسلامية ط2 ، بيروت، دار الطليعة، بيروت: 1979.

6- عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الجيل.

7- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، ت: أبو القاسم سعد الله ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1408هـ/1987م.

8- مبارك الميلي ، رسالة الشرك ومظاهره.

9- محمد أحمد الجوير، الإسماعيلية المعاصرة. ط1: 1414هـ/1994م

10- مصطفى كامل الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ط2، القاهرة: دار المعارف.